الفصاحة

الفصاحة لغة: البيان والظهور والإيضاح، وفي الاصطلاح: عبارة عن الألفاظ البيّنة الظاهرة المأنوسة الاستعمال بين الكُتاب والشعراء لمكان حسنها، وتقع صفة للكلمة، وللكلام، وللمتكلم.

العلاقة بين اللفظ والمعنى: الحديث عن العلاقة بين الفصاحة والبلاغة يقودنا إلى الحديث عن العلاقة بين اللفظ والمعنى من حيث ما جاء في الكتب، فالبعض جعل الفصاحة بحثاً في الألفاظ ثم دخل فيما بعد بما عُرِف بقضية اللفظ والمعنى، وهي من القضايا التي عنى بها النقاد ثم البلاغيون. وللجاحظ راي في ذلك ويُعد من أحسن ما اجتباه ودوّنه حيث يقول (لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك)) وعنده البلاغة تلتقي مع الفصاحة، فهو يرى أن العناية يجب أن تكون بالألفاظ إذ يرى (إن المعاني مطروحة بالطريق يعرفها العربي والأعجمي والقرويّ والمدنيّ والبدويّ، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج)) فالعناية باختيار اللفظ بمعنى أن يخلو اللفظ من العيوب كاللفظ العاميّ والغريب والوحشي، لأن مثل تلك العيوب تُفقِد الألفاظ فصاحتها ولا تؤدي المعنى المطلوب وبالتالي تفقد تأثيرها البلاغي، والجاحظ مع اهتمامه باللفظ لم يهمل المعنى، بل هو يرى أن الاهتمام باللفظ واختياره يؤدي المعنى أداءً حسناً.

لأبي هلال العسكري رأي في قضية اللفظ والمعنى من خلال رأيه في الفصاحة والبلاغة، فهو يرى أن الفصاحة مقصورة على الألفاظ، والبلاغة مقصورة على المعنى، واشترط في الفصاحة والبلاغة الوضوح والإبانة، ويشترط في اللفظ أن يكون واضحاً دالاً على المعنى حتى يستحق اسم الفصاحة، وإذا كان كذلك فهو كلام بليغ.

وعند ابن سنان الخفاجي فقد ظهرت علاقة اللفظ بالمعنى من خلال تعريفه للفصاحة والبلاغة، فالفصاحة عنده مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة عنده وصفاً للألفاظ والمعاني، أي الكلمة بمفردها لا يظهر معناها ولا فضل لها عن صاحبتها إلا إذا تعالقت

مع ما قبلها ومع ما بعدها. فاللفظة المفردة لا تكون لها دلالة إلا ضمن تركيب وحينها يطلق عليها اسم البلاغة. فاللفظ والمعنى يسيران معاً وصولاً إلى البلاغة.

ويأتي عبد القاهر الجرجاني بنظرية نقدية وبلاغية وهي (نظرية النظم) ويقصد بها أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو بحيث تُرتَّب الألفاظ ترتيباً ملائماً لتؤدي المعنى المطلوب ليصل إلى ذهن المخاطب، فهو لم يفرق بين الفصاحة والبلاغة ولم يتعامل مع الألفاظ على أنها ألفاظ مفردة، وإنما يتعامل مع الألفاظ عندما تأتلف مع غيرها من الكلمات لتؤلف الأسلوب، فهو اهتم بالأسلوب أي بعملية إيصال المعنى فاهتمامه بالكلام وليس بالمفردات ومن خلال اهتمامه بالأسلوب وتآلف الألفاظ اهتم بالمفردة. فهو لم يهتم باللفظ بمفرده ولا بالمعنى بمفرده أو بمعزل عن اللفظ بل ركز اهتمامه على (النظم) أي التأليف أو التركيب الذي يجمع الألفاظ المتلائمة والمنسجمة والمتعالقة مع بعضها لتؤدي المعنى المطلوب.

ومما تقدم تبين أن الجاحظ يعتبر تخير اللفظ من شروط الفصاحة لأنه يقود إلى المعنى المراد فاذا اتضح اللفظ اتضح المعنى وفهمه المتلقي فأثر فيه وتأثر به وهو يتفق مع ابن سنان الخفاجي في ذلك بأن اللفظ والمعنى يسيران معاً وصولاً إلى الكلام البليغ. ويتفق الجرجاني مع ابن سنان الخفاجي بأن الفصاحة والبلاغة ترجع إلى حسن التأليف وفضل الألفاظ وحسنها بتآلفها وانسجامها مع بعضها.

فصاحة الكلمة

وتتم فصاحة الكلمة بسلامتها من العيوب وهذه العيوب هي:

١ـ تنافر الحروف: تنافر الحروف يُعد عيباً من عيوب الفصاحة ونقصد به (عدم تلاؤم حروف الكلمة بسبب خروجها من مخرج واحد أو من مخارج متقاربة في الفم وإذا كانت كذلك فأنها تكون ثقيلة على اللسان) وقد أشار الجاحظ إلى هذه القضية وقال (فإن في اقتران الحروف فالجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا تأخير. والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير).

والقزويني يرى أن من التنافر ما تكون الكلمة بسببه متناهية الثقل على اللسان وعسر النطق بها مثل (الهعخع) وهو اسم نبات كما يقال. وقد روي أن إعرابياً سُئل عن ناقته فقال (تركتها ترعى الهعخع).

ومنه ما قاله امرؤ القيس في لفظة (مستشزرات)

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاص في مثنى ومرسل

ويرى ابن سنان الخفاجي أن من شروط فصاحة الكلمة أن تكون متباعدة مخارج الحروف إذ إن عدم ذلك يسبب تنافر حروفها. والكثير من البلاغيين العرب القدامى حين يتحدثون عن فصاحة الكلمة يفصلون بين اللفظ والمعنى جاعلين اهتمامهم على أصوات الكلمة من حيث ثقلها وخفتها على اللسان.

٢ـ الغرابة: وهي أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج في معرفتها إلى البحث في كتب اللغة، كما روي عن عيسى بن عمر النحويّ أنه سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال (ما لكم تكأكأتم عليَّ تكأكؤكم على ذي جِنة؟ افرنقعوا عني) وهو يقصد ما لكم تجمعتم عليّ تجمعكم على مجنون؟ تفرقوا عني أو ابتعدوا.

وقول تأبط شراً

يظل بموماة ويمسي بغيرها جحيشاً ويعرورى ظهور المهالك

ففي البيت كلمات غريبة ووحشية وهي (موماة ومعناها صحراء بلا ماء)، و(جحيشاً تعني منفرداً)، و (يعرورى وتعني يركب)

وقول أبي تمام:

قد قلتُ لما اطلخم الامر وانبعثت عشواء تالية غبساً دهاريساً

فلفظة (اطلخم) غير فصيحة بسبب غرابتها وتعني (اظلم)، ولفظة (غبساً) وهي جمع غبسة وتعني الظلمة، (ودهاريساً) وتعني الدواهي.

٣- الإيهام: وهي أن يلجأ الأديب إلى استعمال كلمة غير محددة المعنى أي تحتمل أكثر من معنى واحد، فيحتار القارئ أي المعنى مطلوب، كقول تميم بن معقل:

يا دار سلمى خلاء لا أكلفها إلا المرانة حتى تعرف الدنيا

فقد أُختلف فيه، فهم لم يعرفوا (المرانة) فقال قائل هي ناقته، وقال آخر هي موضع صاحبته، وقال آخر إنما أراد الدوام والمرونة.

والفرق بين الغرابة والإيهام، الغرابة لا يُعرَف معناها إلا بالبحث في الكتب، أما الإيهام اللفظة تحمل معنيين لا يُعرَف إيهما المقصود.

٤- مخالفة القياس والوضع اللغوي: أي الكلمة جاءت مخالفة للكلمات الموجودة في المعاجم اللغوية، وورود الكلمة على غير القباس يجعل المتلقي يشك في فصاحتها. والوضع اللغوي هو المستعمل عند العرب والمخالف للقياس يعتبر غير فصيح وهو عيب من عيوب فصاحة الكلمة، ومن ذلك قول أبي العجلي (الحمد لله العلي الأجلل) فقد خالف العجلي القباس اللغوي في (الأجلل) والقياس (الأجل) بالإدغام.

ومنه قول البحتري:

شرطي الإنصاف إن قيل شرط وصديقي من إذا صافى قسط

وهنا خالف البحتري الوضع اللغوي في (قسط)، الشاعر أراد أن يقول (عدل) وهو ما يقتضيه السياق والصواب أن يقول (اقسط)، لأن (أقسط) هي التي تعني (عدل) في حين (قسط) تعني جار من الجور. فمخلفة الشاعر للقياس اللغوي غيّر المعنى وقلبه، فالشاعر

أراد أن يقول: إن صديقه إذا تصافى معه عدل، ولكن اللفظة التي جاء بها قلبت المعنى إلى أن صديقه إذا تصافى معه جار عليه وبذلك يكون الشاعر قد ذمّ صديقه في حين هو أراد أن يمدحه بعدله وليس ذمّه بالجور والظلم فابتعد البيت الشعري عن البلاغة بسبب الإخلال بفصاحة اللفظة بمخالفتها للقياس اللغوي.

٥ـ العامية: وتعني استعمال كلمة عامية أي التي تجري على السنة عوام الناس، مثل كلمة (تَفَرعَنَ) في بيت أبي تمام الذي يقول فيه:

جليتُ والموت مبدٍ حُرَّ صفحته وقد تَفَرعَنَ في أفعاله الأجلُ

فلفظة (تَفَرعَنَ) مشتقة من (فرعون) وهو من ألفاظ العوام فعادتهم يقولون (تفرعن فلان) إذا وصفوه بالجبرية أي الجبروت.

ومنه قول آخر:

أقام قِوام الدين زيغ قناته وانضج كيّ الجرح وهو فطير

فلفظة (فطير) كلمة عامية.

وقول أبي تمام:

قد قلتُ لما لجّ في صدّه اعطف على عبدك يا قابري

لفظة (قابري) من ألفاظ عوام النساء.